القلب والدماغ

للاستاذ الكبير محمد فريد بك وجدى

وقع نظرى اتفاقا على فصل بهذا العنوان من كتاب للفيلسوف الفرنسى (انتونان ايمويو) أسماه (تربية الارادة) فأحببت أن أعربه لقراء « المعرفة » فأن فيه علما وحكمة قال :

« هل الحق مع من يقول إن القلب يجني على الدماغ ؟ »

نعم هذا هو الحاصل غالبا ، ولكن متى كان الدماغ هو البادىء بالعدوان على القلب ؟ وفى الجملة فالقلب ـ وأعنى به مجموع الحس الانسانى واندفاعات الطبيعة نحو السعادة ـ إنما يؤدى وظيفته المرسومة له مهما عمل والى أى وجهة اتجه . فأن رأيته قد حاد فاعلم أن الدماغ قد قصر فى وظيفته ، وأثر عليه بعصيانه لقانونه . فالبخار فى الآلة البخارية إنما يؤدى وظيفته بدفعه الكباس الى الوجهة التى سلطت منها البخار عليه . وإذا رأيت أن الآلة خرجت عن القضبان أو انفجرت فاللوم ليس واقعا عليها بل على المدير لها حتى ولو ذهب ضحية سوء تصرفه . فقد كان يجب عليه تلطيف انتشار البخار وتنظيم استعماله ، وإذا حدث من الآلة بعد ذلك ضرر فذلك دليل على أنه كان أساء استعمالها فأفسدها .

قوى القلب عمياء كقوة البخار ، وعلى الدماغ أن يقودها إلى حيث يريد ، وإن من الكائنات ماهى مشحونة بقوة ميكانيكية محدودة ، كما تملأ ساعة الجيب ، ومقودة الى نهاية حياتها المنظمة بالسوق الطبيعى والالهام . مثلها في ذلك مثل ساعة تشتغل حتى تنتهى قوة (الزنبلك) . ولكن الأنسان بخلاف ذلك ، إذ إنه ليس مقودا بالسوق الطبيعى ، لأن ماقدر له من الرقى البعيد المدى يربو على قوة أعضائه ، ولأنه حر مطلق من كل قيد . مثله كمثل الآلة البخارية فليست حركتها منظمة بقوة البخار وحده ، لأنها أعدت لتخدم شيئا غير ذاتها ، وأن تصلح للعمل فى أحوال مختلفة ، والبخار الذى هو قوة تلك الآلة متمتع بخاصية الدفع تمتعا اضطراريا ، وهو لذلك فى حاجة الى من يوجهه الى الوجهة المطلوبة . وإن قليلا من التأثير على آلة أو سكان (أى دفة) تجعل المركبات تجرى فوق القضبان الى الغايات المطلوبة . ولكن إن حدث أنك بعد أن تلقى الى الآلة بما تحرمها من السائق أو الربان تتجه الآلة مقودة بتلك القوة الى التلاشى المحقق . كذلك القلب إن تركته بلا مراقبة تحت تأثير الاحساسات المختلفة والسوق البهيمى الأعمى ، فأنه يضر الدماغ ويضر نفسه ويضر غيره أيضا . وكلما كثر فى هذه الحالة وجود حياة في القلب الأنسانى ، أو بخار فى الآلة كان الخطر أكبر ، مادامت قوة القيادة والتوجيه مفقودة . هل من الناس من عندهم من قوى القلب أكثر مما يلزمهم ؟ كثير

من الناس يشكون من ذلك وليس الحق معهم .

نعم إنى قررت آنفا أن القلب قوة خطرة ، ولكنه ما كان خطرا إلا لأنه قوة ، وكل ما كان قويا فهو خطر . فأن الآلة البخارية تستطيع أن تخرج عن الشريط لأنها تستطيع أن تمشي . وإن السيف المصنوع من الخشب أو البندقية الخالية من البارود مما لاخطر فيه ، لأنه مما لا قيمة له ، وقد يصاح لأن يكون ألعوبة لا سلاحا . ومما يجب أن يشكى منه هو القلب الميت الذى لاحس فيه والذى يمكن تشبيهه ببندقية لا بارود فيها .

فالقلب لكونه قوة خطرة تجب قيادته وتوجيهه ، وهو من أجل ذلك لا تجوز إماتته :—

إن الصناعة لا تحذف السيول ولا البخار ولا الكهرباء ولا أى قوة من قوى الطبيعة ، ولكنها تشاهدها أولا ثم تنميها عند الحاجة ، ثم تخضعها وتوجهها . كذلك يجب أن تكون سيرتنا مع قلوبنا ، فلا يجوز لنا قتلها بوجه من الوجوه . فأن الذى يجعلها تخفق هو الحياة ، ولا يقول عاقل بأن ليس لدى إنسان فضل من حياة ، لأنه ليس لديه فضل من قوة .

وغير هذا فأن فى الصناعات التى تستغل هذه القوى الطبيعية ، لا تجد خوفا من المزاحمة ولا من زيادة المحصول . وكذلك الانسان يستطيع أن يستعمل كل قواه وأن يجد الوسائل لترقية كماله الروحانى والنجاح فى الحصول على ماسيق اليه مهما بلغت القوة القلبية فيه من العظم ، ومن الناس من يشكون من فرط قواهم القلبية ، لا للأخطار التى تستوجبها ولكن للآلام التي تثيرها على صاحبها . ألا ترى أن من كان شعوره أقوى يشعر بآلام الحياة أكثر من غيره ؟

نعم هذا مما لا شبهة فيه ، ولكن من كان أكثر شعورا بالآلام من غيره ، كان أكثر شعورا باللذات كذلك . فأن قلت إن هذين القسطين من الألم واللذة ليسا متساويين ، وإن الآلام تربو فى حياة أصحاب الشعور عن اللذات بكثير ، قلت كفاك ربحا أن يكون ذلك داعيا لزيادة فهمك بآلام الحياة وتكاليفها ، فتستطيع أن تكون مسليا لغيرك ، فأن من لم يتألم لم يشفق ، وإذا كانت الشفقة في ذاتها ألما فأن بجانبها لذة وفرحا ، وهو الفرح الذى يجلبه عليك أن تكون سببا لتفريج هم الغير ، وهذا من الاحساسات التى لا تثمن بثمن .

فاذا كان هذا يظهر لك غير كاف فى تسليتك ، فأضيف اليه قولى : إنك بدلا من أن تمضى حياتك فى الشكوى من إفراط شعورك ، فأولى بك أن تجتهد فى قيادته وإحسان توجيهه ... ذلك خير من قتله ، وأقل كلفة من ثلمه ، وفى ذلك تخفيف لأكثر آلام الحياة ولواعجها ، وإن أكثر هذه اللواعج مرارة وأقلها نفعا ، لا تخزنا بسهامها إلا لأننا ما عرفنا أن نمنع حدوثها فى الزمن المناسب لمنعها فيه . ولكن من الناس من يتخوف من أن حذف الآلام ربما استدعى حذف الفوائد المنتظرة منها ؟

محمد فريد وجدى